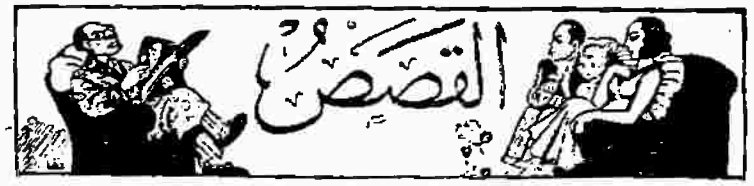

عبث أرستقراطى

للأستاذ نجيب محفوظ

فى ذلك المساء من شهر مارس ازّين قصر الوجيه حامد بك عرفان بحلة لألاءة من الأنوار المتموجة ذات الألوان ، مدت أسلاكها الكهربائية على سور الحديقة فتعانقت مع الياسمين والبنفسج . وتعلقت بأفرع الأشجار والنخيل ، وتوجت بها شجيرات الورود المنتثرة على هيئة أهلة ونجوم . وكان أعجب ما فى القصر هو ذاك البهو المتسع الأنيق الذى فرش بفاخر الأثاث وحليت جدرانه وأركانه بروائع الفن من صور وتحف ، وترك فى وسطه مكان رحب للراقصات والراقصين ، أما فى صدر المكان فقد امتدت ردهة إلى مقصف حافل ، وإلى يمينها فيما يلى الشرفة المطلة على الحديقة احتلت فرقة الموسيقى الإيطالية مكاناً جميلاً ... وانتشر فيما بين البهو والشرفة والمقصف والحديقة المدعوات والمدعوون الذين لبوا الدعوة للاحتفال بعيد ميلاد كوكو الصغيرة ابنة الوجيه عرفان بك وزوجه أنجى هانم عرفان ... وكانوا يجلسون أزواجاً وجماعات يتجاذبون أطراف الأحاديث حيناً بالعربية وأحياناً بالفرنسية ويتضاحكون بأصوات عالية رقيقة وخشنة . وإذا دعت الأنغام قاموا للرقص والعناق . وقد شاع فى الجو عطر وأنس وحرارة كأنها أنفاس المودة تغشتها الأعين والشفاه والصدور والأمانى الهامسة

وكانت الأحاديث متنوعة ، ولكنها تدور فى الغالب حول موضوع واحد يتجاذبها كما يتجاذب النور الفراشة ، وهو المرأة ، ولا يُستثنى من ذلك الجماعة التى كان محدثها الأول الأستاذ على الجميل الصحافى المعروف والنائب المحترم ، فما خرج الحديث فيها عن الزواج واختيار المرأة الصالحة ، وكان النقاش يحتدم بين المتجادلين من الجنسين بصورة عنيفة مضحكة . أما الوجيه نور الدين فكان يتوسط حلقة أخرى يروى فيها ما اتفق من قصص مغامراته الغرامية فى العواصم العالمية ذوات الشهرة فى الحب والجمال ؛ وفى ركن منعزل امتاز وفرة من حوى من الشابات والشبان أقيمت مسابقة سرية لاختيار أقبح امرأة بين المدعوات واتجهت أبصار المحكمات والمحكمين إلى امرأة اتخذت مكانها تحت صورة الفنانة وابنتها « لفيجيه لوبرين » ، وكانت عجوزاً إلا أنها تتصابى وتستعير من ألوان الجمال ما تظن أنه يغنى عما استرده الدهر من حياة شبابها ، فبدت تحت طلاء الأصباغ فى هيئة مضحكة ، وكانت تتجنب الناس وتقنع بالجلوس منفردة حتى تعود إلى مجالستها ربة الدار أنجى هانم كلما تاقت نفسها إلى الراحة . أما اسمها فدولت هانم ، وقد راضت نفسها على العزوبة بعد تجربة أربع زيجات غير موفقة ، وكادت تيأس من الرجال والحب . وقنعت من متاع الدنيا بمضغ الأعراض والخوض فيما تعلم وما لا تعلم من أسرار الناس ، فصارت معجماً لتواريخ السوء . وكانت فى تلك اللحظة التى اختيرت فيها سراً ملكة للقبح ... تجالس أنجى هانم، وكانت تلوذ بالصمت قسراً بعد أن لم تبق على أحد من الحاضرات والحاضرين ، حتى أتيحت لها فرصة جديدة للكلام بحضور الوجيه الأستاذ محمد جلال المحامى وزوجه الحسناء صفية هانم جلال . وكانا يلفتان الأبصار حيثما سارا لثراء الزوج المالك لأربعة آلاف فدان فى الصعيد ، وجمال الزوجة ورشاقتها ، وقد استقبلتهما أنجى هانم بمودة ظاهرة وباطنة ، ولما عادت إلى جوار دولت هانم مالت هذه على أذنها وقالت بصوتها الخافت المبحوح :

— يالها من زوجين سعيدين جميلين !

فقالت السيدة بحماس :

— الأستاذ جلال شاب يندر أن يوجد نظيره بين الشباب الناجح الثرى ... ألا تعلمين أنه مرشح لكرسى النيابة ؟ ... وأما صفية فهى آية للجمال والصفاء ...

فابتسمت المرأة ابتسامة باهتة وقالت :

— نعم ، نعم ... لا شىء يعيبه إلا أنه يقال إنه قد يتبارز من أجل راقصة ، أما إذا استثيرت غيرته الزوجية فقد يفضى ...

وضاقت أنجى هانم ذرعاً بحديث صاحبتها ، فلم تسألها إيضاحاً

وتشاغلت عنها بمشاهدة بعض الراقصين ، ثم استأذنت لاستقبال بعض سواحبها ...

وسلم الأستاذ محمد جلال وزوجه على عدد عديد من الأصدقاء والصديقات ، ثم اختارا أن يجلسا إلى زوجين جميلين مثلهما هما الوجيه طه بك العارف وزوجه الحسناء هدى هانم العارف ، وكان الأستاذ جلال يبدى إعجاباً خاصاً نحو السيدة هدى . فلما عزفت الموسيقى دعاها إلى الرقص معه وقبلت بسرور ورقصت زوجه مع طه بك ...

وطرب الجميع طويلاً وشربوا كثيراً ، فدارت رؤوس وثرثرت ألسنة كتومة ، وفاضت الأحاديث ، وامتلأ الجو برنين الضحكات ووميض الابتسامات وإيماءات الغزل ، والتفت أعين وتماست أنامل وارتعشت شفاه ... حتى جاءت تلك الساعة المختارة من الليل فتوسطت المدعوين السيدة أنجى هانم وقالت بصوتها الرخيم :

— اسمحوا لى سيداتى وسادتى أن أقدم إليكم مفاجأة السيد السعيد

وتطلعت الوجوه إليها من كل صوب وتجمع حولها المبشرون ما بين الشرفة والقصف ينتظرون فرجين . وبغتة أطفئت الأنوار بغير نذير وساد المكان ظلام دامس دام خمس دقائق ما كان يسمع خلالها سوى همس خافت أو ضحكات مكتومة ، ثم أضيئت الأنوار مرة أخرى فرأى القوم منظراً بديعاً ... مهدا على قوائم أربع طويلة ، مسقفاً بستار من حرير على هيئة هرمية ، وفيه جلست كوكو متكئة على يديها الصغيرتين فى قميص أبيض كأنها وردة بيضاء يانعة ، وكانت ترمق الناظرين بعينين دهشتين صغيرتين ينعكس النور على زرقتهما الصافية ! فصفق الجميع تصفيقاً رقيقاً وهتفوا باسمها ، وقبل الآنسات يدها الصغيرة ، ثم قدمت الهدايا النفيسة حول مهدها الجميل ، وشمل القوم سرور عظيم فاستأنفوا لهوهم بإرادة أشد نزوعاً للصبا والمسرة . على أن فترة الظلام القصيرة لم تمر بسلام كما توهم الجميع . فقبيلها بدقائق كان الأستاذ محمد جلال يجالس هدى هانم فى القصف وقد دل عبثهما المرح على أنهما ثملان ، فلما أطفئت الأنوار لم يتردد الشاب فدنا برأسه منها حتى كادت تمس شفتاه أذنها وهمس قائلاً : « هدى » وارتجفت المرأة كالمذعورة ولم ترد عليه ، فقال لها همساً وهى تحس بلمس شفتيه لأذنها : « هذه فرصة طيبة . قومى وانبعينى »

وكان بودها لو تتبالله كما يقضى الدلال ولكنها خشيت أن يضاء النور بسرعة ، فقالت همساً :

— إلى أين ؟

— إلى حجرة التدخين فى الطابق العلوى !

— قد يفتقدوننا

— وماذا يهم ! ... سيظنون أننا فى الشرفة أو فى الحديقة أو فى القصف أوهنا أوهناك ، وسنعود من طريقين متباعدين ...

وأمسك بكفها وقام واقفاً فقامت بدورها ، واتجه نحو السلم وهى تتبعه ، وارتقياه بسرعة ، فوجدا نفسيهما فى ردهة مضاءة بنور بنفسجى هادئ ، تطل عليها أبواب متباعدة ، فسارا إلى هدفهما ودخلا معاً ثم ردا الباب فى سكون ، وكان الجو مظلماً شديد الظلمة ، ولكنه كان يعرف المكان فانعطفا إلى اليمين وتقدما خطوات ، حتى عثرت يده بكنبة كبيرة وثيرة ، فجلس وجلست ، وتنهد من أعماق صدره ، وقبض على كفها فوجدها ترتعش كالمفرورة ، فسرت رعشتها إلى قلبه ووجد به غمزاً لم يبرأ منه حتى ضمها إلى صدره بعنف وانهال على وجهها يقبله بشغف وجنون ، كم لبثا منفردين ؟ إنه لا يدرى ولكن المحقق أن تلك الخلوة السعيدة لم تخل مما ينغصها ، فقد خيل إليهما أن أقداماً خفيفة كالحاذرة تدنو من باب الحجرة ، فتباعدا قلقين وأرهفا السمع واتجهت أعينهما فى الظلام ناحية الباب ، وخالا أكثر من هذا أن يداً تعالج الباب بلطف ... ترى أحق هو أم وهم !! ولكن الباب تحرك ونفذ إلى الحجرة شعاع هادئ كروح محتضرة ، فاشتد بهما الرعب ووددا لو تبتلعهما الأرض ، وما لبث أن تسلل شبح فى حذر وتبعه آخر ، ثم رد الباب إلى ما كان عليه فساد الظلام مرة أخرى ، وكان الداخلان شديدى الحذر فلم يبديا حركة ، ولم يصدرا أصواتاً ، وكأنهما ذابا معاً فى الظلمة

الجامعة ... فسكن ذعر الآخرين وأحسا بشيء من الارتياح بل والطمأنينة ، وخطرت لها فكرة مما هي أن الضيفين الجديدين مثلهما وأن لا خطر عليهما منهما ، وتأكد هذا الظن حين شعرا بهزة تصيب الكنبة فعلما أن صاحبيهما اختارا كنبتهما مقعداً لهما أيضاً ، وتريثا في قلق صار بعد حين ضيقاً وكدراً لأنهما لم يستطيعا أن يأتيا حركة خشية أن ينتبه الآخران فيفزعا ، وربما حدث ما لا تحمد عقباه !

أما الجديدان فكانا يظنان نفسيهما في أمان وخلوة فلم يحاذرا إلا بمقدار، واستطاع العاشقان أن يسمعا همساً وهمهمة وأن يسمعا الرجل يهانف صاحبته وهي تهانفه ولم يكتفيا بذلك ، بل قال الرجل بصوت استطاع الآخران أن يميزاه : « حبيبتي ... صفية ... » وارتجف محمد بك جلال كأنما قطعة من الثلج ألقيت على ظهره ؛ وأحس بارتجاف يد صاحبته في يده ... كان الصوت صوت طه بك العارف ... ومن هدى ؟ أليست زوجه هو ؟! ... أي كارثة تجمعت في هذه الحجرة المظلمة ! ودق قلبه بعنف وغلى دمه غلياناً كاد يفجر الشرايين في دماغه ، ولكنه لبث ساكناً صامتاً وزوجه على قيد ذراع منه في أحضان خليلها ! ولم يكن يأسف على عجزه عن تحطيم رأس الرجل — فمثل هذا العمل يثير فضيحة حرية بالقضاء على مستقبله السياسي ومعركة الانتخابات على الأبواب — ولكنه كان مغيظاً محنقاً لأن غريمه لا يدرك في تلك اللحظة أن زوجه بين يديه هو أيضاً ...

وانتظر دقائق كالأجيال ، وشعر أخيراً بحركة استدل بها على قيام الرجل وسمعه يقبل زوجه بحرية ويقول لها : « لو تعدل الدنيا ... فزوجك النبي ليس أهلاً لك وزوجتي ليست أهلاً لي . ولكن ما العمل ؟! » ... ثم تسللا خارجين كما أتيا ...

وكان الغضب قد أفسد على جلال بك مزاجه فقام هائجاً ، وبحث عن سترته حتى عثر عليها وأخذ بيد صاحبته وخرجا في حذر ثم افترقا في الردهة ...

ولبث ضيق الصدر شديد الكدر ساعة طويلة يلعن طه بك ويلعن زوجه المستهترة ، ولم تكن هذه أولى خياناتها ، ولكنها وقعت على كثب منه بحال بشعة لا يمكن أن تمحى من الذاكرة. فمحقاً لها ! ... وقام يتمشى في الحديقة فاراً بوجهه الممتقع من الأعين جميعاً ، ولفحه هواء الليل البارد فرطب جبينه الساخن ، وأنعش فؤاده المضطرم . وصح عزمه في تلك اللحظة على أن يسلم قياده لمغامرات الغرام الجنونية غير مبق على شيء ولو أدى الجنون إلى الظهور مع هدى في المجتمعات العامة وميادين السباق . وتعلقته هذه الخواطر فأحس بارتياح ومضى يفيق من همومه وينتبه إلى نفسه . فاستطاع عند ذلك أن يشعر بتغير غريب ، فعجب لشأنه وتناسى انشغاله . وبحث عن أسباب هذا التغير فوجد يده تجسان السترة وكأنها أوسع مما كانت . . . ماذا حدث لها ؟ يا للعجب . . . إنها أوسع مما يتصور . وخطر له خاطر غريب اضطرب له فؤاده ، ولكي يتحقق من وساوسه وضع يده في جيب السترة وأخرج حافظة ، لم تكن حافظته ، ووجد بها بطاقة مكتوباً عليها « طه بك العارف »

ووضح الأمر ، وعاوده القلق والحنق ، ولم يكن ثمة خوف من الفضيحة ، فسترات بدل السهرة متشابهة ، ولكنه كان يشعر بحيرة شديدة ويسائل نفسه : « كيف يمكن أن تتبادل السترتان ؟! »

نجيب محفوظ

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة في مجلدين. وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشا في الخارج عن كل مجلد .

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)